

ألبرت أينشتاين (1879-1955) و سيغموند فرويد (1856-1939) ، مراسلات من أجل ثقافة ضد الحرب من عام

١٩٣٢

نور عسليّة

بدأت «اللجنة الدولية للتعاون الفكري» Commission internationale de coopération intellectuelle نشاطها في باريس عام ١٩٢٢، ترأسها في حينها هنري برغسون ثم توقف نشاطها عام ١٩٤٦. كانت هذه اللجنة واحدة من مهام عصبة الأمم والتي بدورها كانت أحد نتائج مؤتمر باريس عام ١٩١٩ من أجل إنهاء الحرب العالمية الأولى. منذ بداية تأسيس اللجنة الدولية للتعاون الفكري عام ١٩٢٢ كان ألبرت أينشتاين أحد أعضائها، انضم إليها بعد دعوة ماري كوري - أحد الأعضاء أيضاً- واستمرت عضويته تسع سنوات انتهت عام ١٩٣١ بعد أن صرّح بشعوره بأن اللجنة لم تعد قادرة على تحقيق مهامها.

لكن ، في عام ١٩٣٢ - أي في فترة ما بين الحربين - و كامتداد لنشاطه ضمن إطار هذه اللجنة ، قام أينشتاين باقتراح مراسلة فرويد من أجل العمل على موضوع معين و هو « لماذا الحرب ؟ ». صدرت هذه المراسلات أولاً في مؤتمر انعقد في العام ذاته في باريس ثم طبعت في كتيب ترجم للغات عديدة. هذا السؤال المطروح من قبل أينشتاين يتماشى إذاً مع رؤية اللجنة والتي كانت حسب كريستوف دافيد ، الذي قام بالتقديم في الإصدار المترجم إلى الفرنسية عام ٢٠٠٥ ، : « تعزيز التعاون في المجال الفكري و تشكيل فكر عالمي من أجل دعم دور اللجنة لصالح السلام ». يتضمن هذا الحوار رسالتين فقط ، الأولى من قبل ألبرت أينشتاين و الثانية هي رد فرويد . يطرح أينشتاين أسئلته حول أسباب نشأة الحروب و يطرح اقتراحات وسبل لمحاولة حدها بشكل مختصر و مركز في عدة صفحات ( ثمان في النسخة الفرنسية ) ويأتي رد فرويد مطوّلاً شارحاً و تفصيلاً في أكثر من الضعف (خمس و عشرون صفحة ). ومن الجدير بالذكر أن فرويد كان قبل هذا التاريخ ، تحديداً عام ١٩٣٠ قد أصدر كتابه « قلق في الحضارة » ( مترجم من الفرنسية للعربية من قبل جورج طرابيشي ) والذي يبحث فيه بمنهجية نقدية عن الأسباب النفسية لنقص شعور الإنسان بالسعادة ضمن الأطر الاجتماعية على اختلافها ، ويتطرق فيه لموضوع الحرب و العنف ، وأن أينشتاين في ختام رسالته إلى فرويد يذكر هذا الكتاب طالباً منه التوسع في بعض الطروحات . لكن أينشتاين قد تعيّب عن المؤتمر المعقود لإطلاق هذا التبادل الفكري بينه و بين فرويد، فلقد كان مشاركاً في ندوات الكونغرس في تلك الفترة حول الموضوع ذاته ، أي المساعي لوقف الحرب . قام فرويد في النهاية بطرح مداخلته و جيداً معبراً عن إحباطه لغياب أينشتاين ومعتبراً أن ذلك قد غير صيغة المشروع وفكرة الحوار و التبادل.

وفي حين أن هذا السؤال السياسي الإنساني الاجتماعي واسع و شمولي : لماذا الحرب ، وأن أينشتاين يطرح أسئلته حول مفهومي القوة و القانون ، فإن فرويد يميل دائماً للتطرق من وجهة نظر التحليل النفسي ويقترح استبدال كلمة «قوة» ب «عنف» ، ثم يذهب أبعد من ذلك ليقول بأن حتى مفهوم « القانون » يمكن أن ينطوي على العنف ، لكن ذلك يتطلب تحقق عامل نفسي معين و هو أن يكون الاتحاد الممثل لسلطة هذا القانون «مستقر و دائم» .

في الحقيقة ، إن خلف هذا التبادل المبدع بين أينشتاين و فرويد علاقة فكرية و شخصية شائكة أخص ما أورده الكاتب كريستوف دافيد حولها : كان أول لقاء بينهما عام ١٩٢٦ في منزل فرويد في برلين ، و كان فرويد يقارب السبعين من العمر ، وأينشتاين في عمر الخامسة و الأربعين . دام الحديث بينهما في أول لقاء مدة ساعتين متواصلتين ، يعلّق فرويد على هذا اللقاء في رسالة موجهة إلى حفيده قائلاً بأن الحوار كان ممتعاً لأن أينشتاين يعرف عن الطب و التحليل النفسي بقدر ما أعرفه عن النظرية النسبية . لكن في وقت لاحق ، فرويد يصرّح لماكس أتانغون ( الصديق المشترك بينه و بين أينشتاين) بأن «النظرية النسبية تبدو غير قابلة للفهم» وفي المقابل فإن أينشتاين عبّر للصديق الوسيط ذاته بأنه « ليس بإمكانه القبول بكل نتائج نظريات فرويد رغم صداها العظيم » خصوصاً فيما يتعلق بإرجاء أغلب تصرفات الكائن البشري إلى اللاوعي.

في النهاية ، من المؤكد أن وقوف شخصيتين مثل فرويد و أينشتاين هذا الموقف الصارم ضد الحروب له أثر واسع .

ينتهي فرويد مداخلته بعبارة جوهرية لا بد في النهاية من ذكرها ، يقول : «كل ما يعمل من أجل تطوير الثقافة يعمل أيضا ضد الحرب .» شخصياً أفهمها : كل من يعمل لتطوير ذاته باختصاصه يعمل أيضا ضد الحرب .

Albert Einstein et Sigmund Freud, Pourquoi la guerre ?, traduction par Blaise Briod  
.,Rivages, Paris, 2005